﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾

[النور: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

صفات عمّار المساجد التي استحقّوا بها أحسنَ الجزاء

لَمّا تقدّم الحديثُ عن بيوت اللّه وما يتعلّق بها من أحكام مادّيّة ومعنويّة، وما يكون فيها من ذِكْرٍ وتسبيح؛ جاءت هذه الآيةُ لبيان صفات عُمّار هذه المساجد التي استحقّوا بها أحسنَ الجزاء؛ فقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ومنها؛ لمّا كان تَرْكُ الدُّنيا شديدًا على أكثَرِ النُّفوسِ، وحُبُّ المكاسِبِ بأنواعِ التِّجاراتِ مَحبوبًا لها، ويشُقُّ عليها تَركُه في الغالبِ، وتتكَلَّفُ من تقديمِ حَقِّ اللّه على ذلك؛ ذَكَرَ ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا؛ فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِجَالٌ﴾: الرَّجُلُ: خِلافُ المَرْأَةِ، وهو الذَّكَرُ مِن نوْعِ الإنسانِ، وقيل: إنَّما يكون رَجُلًا إذا احْتَلَمَ وبَلَغَ، ويُطْلَق الرَّجُلُ أيضًا بِمعنى الرّاجِلِ؛ أي: الماشي على رِجْلَيْهِ[2]، ويُقال: رَجِلَة للمرأة إذا كانت مُتشبّهة بالرّجل في بعض أحوالها، والمقصود بالرِّجالِ في الآية: جَمعُ رَجُلٍ، وهو الذَّكَرُ البالِغُ مِنَ الآدَميّينَ خاصَّةً، والمُراد بهم هنا: أَصحابُ رسول اللّه ﷺ ومَنْ كانَ مِثْلَهُم في التَّعلُّقِ بالمَساجِدِ، وتَخصيصُ التَّسبيحِ بالرِّجالِ على هذا؛ لأَنَّهم الغالبُ على روّاد المساجِدِ[3].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 569.
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (رجل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 248.

2) ﴿تُلْهِيهِمْ﴾: (لهو) أصلٌ يَدُلُّ على شُغْلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ، واللّهو: ما ألهاكَ، وهو كُلُّ شَيءٍ شَغَلَكَ عمّا يعنيك ويهمُّك، ولَهَوْتُ مِنَ اللّهو، ولَهيتُ عنِ الشَّيءِ، إذا تَركتَهُ لغَيرِهِ، والقياسُ واحِدٌ وإنْ تَغَيَّرَ اللَّفظُ أَدنَى تَغَيُّرٍ[1]، ويُعبَّر به عن كلِّ ما بِهِ استمتاع، ويُقالُ: أَلهاهُ كذا؛ أيْ: شغلَهُ عمّا هو أهمّ إليه[2]، ويراد به أيضًا: ما يُقصَدُ منهُ تَشغيلُ البالِ وتَقصيرُ طولِ وقتِ البِطالةِ دونَ نَفْعٍ[3]، والمُراد باللّهو في الآية: اشتغالُ الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه[4].

3) ﴿تِجَـٰرَةٌ﴾: (تجر) أصلٌ يدلُّ على التَّصرُّف في رأس المال طلبًا للرِّبح[5]، وتَجَرَ يَتْجُرُ تَجْرًا وتِجارَةً: باعَ وشَرَى، وكذلكَ اتَّجَرَ وهو (افْتَعَل)[6]، وليس في كلامهم تاءٌ بعدَها جيم غير هذا اللّفظ[7]، قال ابنُ الأعرابيِّ: فلانٌ تاجر بكذا؛ أيْ: حاذِقٌ به، عارفٌ الوجهَ المُكتسَبَ منه[8]، والمُراد بالتِّجارة في الآية: تقليبُ المالِ بالبَيع والشِّراء لغَرض الرِّبح.

4) ﴿بَيْعٌ﴾: (بيع) أَصلٌ واحِدٌ، وهو بَيْعُ الشَّيءِ[9]، وبِعْتُه في معنى بِعْتُه واشتريتُه جميعًا، فانباعَ؛ أيْ: نَفَقَ، وابتاعَ؛ أي: اشْتَرى[10]، وذلك بحسب ما يُتصوَّر منَ الثَّمن والمُثمَّن[11]، وهو منَ الأضداد[12]، والبَيْع: إعطاء المُثمَّن وأخذُ الثَّمن، والشِّراء: إعطاءُ الثَّمن وأخذ المُثمَّن[13]، وعلى ما سبق؛ فالتِّجارةُ: جَلْبُ السِّلَعِ للرِّبْحِ في بيعها، والبَيعُ أَعَمُّ: هو أَنْ يَبيعَ أحدٌ ما يحتاجُ إلى ثَمَنِهِ[14]؛ والمعنى في الآية واضحٌ.

5) ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ، يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (لهو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 142.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 56.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (تجر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (تجر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تجر).
(8) الرّاغب، المُفردات: (تجر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيع).
(10) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (بيع).
(11) الرّاغب، المُفردات: (بيع).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (بيع).
(13) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (بيع).
(14) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249.

وقيامًا؛ أيْ: وقَفَ وانْتَصَبَ، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ، إذا انْتَصَبَ[1]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بالمَكانِ؛ أيْ: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيهِ، وتُطْلَقُ بمعنى الدَّوامِ على الشَّيْءِ؛ كَقَوْلِهِم: أقامَ الشَّيءَ؛ بمعنى: أدامَهُ[2]، ومِن مَعانيها: القيامُ بالشَّيءِ، مِن أقامَ الشَّيْءَ: إذا قَوَّمَهُ وسَوّاهُ، كَما تُطْلَقُ الإقامَةُ أيضًا ويُرادُ بِها: جَعْلُ القاعِدِ قائمًا[3]، والمُراد بـ ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: إدامتُها؛ أيْ: عَدَمُ الغفلةِ عنها[4].

6) ﴿تَتَقَلَّبُ﴾: (قلب) أصلٌ يَدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، وقَلَبْتُ الثَّوبَ قَلْبًا، وقَلَبْتُ الشَّيْءَ: كَبَبْتُهُ، وقَلَّبْتُهُ بيدي تَقْليبًا[5]، والقَلْبُ: صَرْفُكَ إنسانًا تَقلِبُه عن وجهِهِ الَّذي يُريده، وقَلَّبَ الأُمورَ: بَحَثَها، ونَظَر في عَواقبها[6]، والتَّقَلُّبُ: التَّصرُّف، قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشّعراء: 219]، وتَقَلُّبُ القلوبِ والأبصارِ: اضطرابُها عن مواضِعها مِنَ الخوفِ والوَجَلِ كما يتقلَّبُ المَرْءُ في مكانِه، وهذا هو المُراد به في الآية[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤمن لا تُلهيه الحياةُ عن ذِكْر الله

بيَّنت هذه الآيةُ صفاتِ عُمّار المساجد المُسبِّحين للّه، بأنّهم رجالٌ لا تشغَلُهم الدّنيا وزُخرُفها عنِ الآخرة، ولا بيوعُهم وتجاراتُهم عن ذِكْر ربّهم، وهو خالقهم ورازقهم، إذ يعلمون أنّ ما عنده خيرٌ لهم وأنفعُ ممّا بأيديهم، فما عندَهم ينفد، وما عند اللّه باق؛ لذلك فهم يؤدّون الصّلاةَ في مواقيتها على الوجه الذي رَسَمه الدّين، ويُؤتون الزّكاةَ المفروضةَ عليهم؛ تطهيرًا لأنفسهم منَ الأرجاس، ويخافونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيدَه، المُخَصَّص، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 200.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) ابن سيدَه، المُخَصَّص، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249.

يومَ القيامةِ الذي تتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ فيه قلوبُ النّاسِ وأبصارُهم مِن شِدَّةِ الأهوالِ والفَزَعِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

تعيينُ صفةِ مَن هداه الله لنورِهِ وتسبيحِهِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ عمّا سبق؛ لأنّها جُملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النّور: 35]، فيَسألُ السّائلُ في نفسه عن تعيين بعضٍ مِمَّن هداه اللّه لنوره، فقيل: رجالٌ في بيوت[1]، أو تكون جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنّه قيل: مَن يُسبِّح له؟ فقال: يُسبِّح له رجالٌ[2].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿رِجَالٌ﴾:

إشعارٌ بهِمَمِهم العاليةِ وعَزائِمِهم القويّة

عبّر القرآنُ الكريم بلفظ ﴿رِجَالٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾؛ للدّلالة على هِمّتهم السّامية، ونيّاتهم وعَزائِمهم العالية، التي بها صاروا عُمّارًا للمَساجِدِ التي هي بُيوتُ اللّهِ في أرضه، ومواطِنُ عِبادته وشُكره، وتَوحيده وتَنزيهه، وممّا يؤكّد ذلك أنَّ القرآن الكريم يُعبّر بلفظ ﴿رِجَالٌ﴾ في كلّ موطنٍ تظهر فيه الرّجولةُ الإيمانيّة، وقد ورد ذلك في القرآن في ثلاثة مواضع؛ أوّلها: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التّوبة: 108]، وثانيها: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾[3]، وثالثُها: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]؛ فكلمةُ ﴿رِجَالٌ﴾ تدلُّ على المَدح والثَّناء، كما يُقال: فلانٌ رجل؛ أيْ: اتَّصف بصفة الرُّجولة[4]؛ وهي البُطولة، والشَّهامة[5]؛ ففي هذا الوصف مدحٌ وتكريمٌ لهؤلاء الرِّجال[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 248.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 321، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 6/ 540.
(3) النَّسفيّ، مدارك التّأويل: 11/ 147.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 251.
(5) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 393.
(6) الطَّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 131.

كما أنّ لفظ (الرّجال) مُستلزمٌ لأوصاف صالحة لإناطة الحُكم به، والفرقُ بيِّنٌ في الأحكام التي تترتّب على وصف الرّجولة، كما في أمر القِوامة في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 34]، وكما هنا في أمر المساجد، فإنّه يدلُّ بمفهومه على أنّ النّساء يُسَبِّحنَ اللّهَ في بيوتهن لا في المساجد، وهذا هو الأصل، وإن كان الإسلام رخّصَ لهُنّ الذّهاب إلى المسجد، كما صَرّحت بذلك الأحاديثُ النّبويّة الشّريفة[1]، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ القرآن لم يُعبّر بلفظ (المُسبِّحون) أو نحو ذلك؛ لأنّ هذا الوصفَ عامٌّ يشترك فيه الرّجالُ والنِّساء على حَدٍّ سواءٍ، وعند ذلك قد يتوهَّم البعضُ وجوبَ ذهابِ النّساء إلى المسجد للذِّكر والتَّسبيح، وهذا غيرُ مُراد.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ مع التّنوين:

تفخيمُ مقامِ هؤلاء الرِّجالِ، وتعظيمُ منزلتِهم

في تنكيرِ لفظة ﴿رِجَالٌ﴾ مِنَ الفخامةِ ما فيه؛ لأنَّ الثَّناء على هؤلاء الرِّجال ثناءٌ جَمٌّ[2]؛ ففيه دلالةٌ على مزيد قوّةٍ في العزيمة، ورفعةٍ في الشّأن؛ لأنّهم قومٌ لا تشغلهم الدُّنيا عنِ الآخرة؛ بل يذكرون اللّه، ويُديمون ذِكْرَهُ صباحَ مساءَ؛ ابتغاءَ خيره، ويُقيمون الصَّلاةَ ويُؤتون الزَّكاة، فهم ليسوا ممَّن يُؤثِرُ على ربِّه دُنيا ذاتَ لَذّاتٍ، ولا تجارةً ومكاسبَ مُشغلةً عنه، فقد جعلوا طاعةَ اللّه وعبادتَه غايةَ مُرادِهم، وهم مع هذا الاجتهاد يخافون يومًا تتقلَّب فيه القُلوبُ والأبصار[3].

دلالةُ مُتعلَّق لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ ومَوْضِعُه:

بيانُ ما أُجْمِلَ في الآية السّابقة وتفسيرُه

قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ راجعٌ في تَعَلُّقِه بالمعنى من خلال القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النّور: 36] الآية، فقد قرأ الجمهور: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ [النور: 36] بكسر الباء الموحَّدة المُشدَّدة، مبنيًّا للفاعل، وفاعلُه ﴿رِجَالٌ﴾، والمعنى

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 228.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(3) الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 685، وملّا حويش، بيان المعاني: 3/ 141.

واضحٌ على هذه القراءة؛ حيثُ وقع لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلًا للفعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ [النور: 36]، وأمّا على القراءة الثّانية، وهي قراءة ابن عامر وشُعبة عن عاصم: (يُسَبَّحُ لَهُ فيها) بفتح الباء الموحَّدة المُشدَّدة، مبنيًّا للمفعول[1]، فالفاعلُ المحذوفُ ونائبُه تفسيرٌ للفعل المبنيِّ للمفعول في الآية السّابقة (يُسَبَّح)[2].

دلالةُ تأخير لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ عن الظَّرف في الآية السّابقة:

العنايةُ بأماكن الذِّكر والعبادة والحِفاظ عليها

جاء لفظُ ﴿رِجَالٌ﴾ متأخِّرًا في الذِّكر عن ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: 36 - 37]؛ فالمُلاحَظ تقديمُ البيوتِ في الذِّكر على الذّاكرين والعابدين مِن باب العناية بمَحلّ الذِّكر، ولفتِ أنظارِ العُمّار إلى أهمّيَّته للحفاظ عليه.

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

التَّشويقُ لِذِكْر خبرِ المُسبِّحين من عباد الله الصّالحين

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ [النور: 36] في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ [النور: 36] على فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ [النور: 36] وهو ﴿رِجَالٌ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّر، ولأنَّ في وصْفِه نوعَ طولٍ، فيُخِلُّ تَقديمُه بحُسنِ الانتظام[3].

سِرُّ تخصيص الرِّجال بالذِّكْر:

صلاةُ النِّساءِ في بيوتهنّ أفضلُ

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ الرِّجالَ بالذِّكْرِ مع أنّ حضور النِّساءِ المساجدَ سُنّةٌ شهيرة؛ إشارةً إلى أنّ صلاتَهن في بيوتهنّ أفضلُ[4]، فليس على النِّساء جُمُعةٌ ولا جماعةٌ في المساجد[5]؛ ولأنَّ النِّساءَ أيضًا لَسْنَ مِن أهلِ التِّجاراتِ[6].

(1) ابن الجَزَريّ، النَّشر: 2/ 332.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 253، وأبو زرعة، الحُجَّة في القراءات، ص: 501.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(4) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 279.
(5) الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 107.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397.

دلالةُ ما وصفَ اللهُ تعالى به الرِّجالَ:

كـمـالُ تبتُّلهم لـلـه، وعـدمُ الانشغال عنه

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ صِفَةً لـ ﴿رِجَالٞ﴾؛ مُؤكِّدةً لِما أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفخامةِ، ومُفيدةً لكَمالِ تبَتُّلِهم إلى اللهِ تعالى، واستغراقِهم فيما حُكيَ عنهم مِنَ التَّسبيحِ، مِن غيرِ صارفٍ يَلْويهم، ولا عاطفٍ يثْنيهم[1]، وفيه إشارةٌ إلى تعلُّق هؤلاء الرّجال ببيوت الله تعالى مع ما يعتريهم في الظّاهر من صوارف الحياة وانشغالاتها مِن تجارةٍ وبيعٍ، إلّا أنّهم مع ذلك يصدُق فيهم قولُ النّبيّ ﷺ: «ورجلٌ قلبُه مُعلَّقٌ بالمساجد»[2].

دلالةُ نَفْيِ لَهْوِهم بالتّجارةِ والبيعِ:

المُبالغةُ في الثّناءِ عليهم في تقديمِهم حقَّ اللهِ على حقوقِهم ومصالحِ دُنياهم

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بالثّناء على هؤلاء الرّجال في قوله: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾؛ أي: إنّهم لا تشغلُهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنِ الصَّلوات وأوقاتِها في المساجد[3]؛ وفيه دلالةٌ على أنَّهم تُجّارٌ وباعَة، ومعَ ذلك لا يشغلُهم عنِ الذِّكر والصَّلوات وإيتاء الزَّكاة شاغلٌ مِن ضروبِ منافع التِّجارات، قال الحسنُ البصريّ: "أَما - واللّه - إنْ كانوا لَيَتَّجرون، ولكن إذا جاءت فرائضُ اللّه لم يُلههم عنها شيءٌ، فقاموا بالصَّلاة والزَّكاة"[4]؛ لأنَّه لا يُقال: إنَّ فلانًا لا تُلهيه التِّجارةُ عن كيت وكيت إلّا وهو تاجرٌ، وإن احتمل كونه غيرَ تاجرٍ أيضًا[5].

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾:

انشغالُ القلبِ باللهِ دونَ سواه

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ مادحًا لهم بقوله: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٞ﴾، ولم يَقُلْ: لا يبيعون ولا يشترون؛ لأنّ الّذي لا يبيع ولا يشتري قد يأتي إلى المسجد ليَسُدَّ الفراغَ، فهؤلاء الرّجالُ لو كانوا لا يَعرِفونَ التِّجارةَ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (629)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1031).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 248.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397.

ولا يستطيعونَها لقيل: إنَّ لجوءَهم إلى بيوتِ اللهِ مِن بابِ الضَّرورةِ؛ يعني: لأجْلِ أنْ يقضوا الوقتَ عن أنفُسِهم، ويتسَلَّوا بذلك؛ لكنَّهم قومٌ لهم تِجارةٌ، فالصّارفُ عن ذِكْرِ اللهِ في المساجدِ موجودٌ، وهو التِّجارةُ، لكنَّهم مع ذلك لا تُلهيهم، وكُلَّما قَوِيَ الصّارفُ ولم ينصَرِفِ الإنسانُ، فهو أكمَلُ ممَّن لا صارفَ له، فكونُهم يبيعون ويشترون، وهذا البيعُ والشِّراءُ لا يُلهيهم عن ذِكْرِ الله، هو أبلغُ في الثَّناء[1].

دلالةُ تخصيصِ التِّجارة بالذِّكْرِ:

تَخصيصُ التِّجارةِ بالذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾؛ لكونِها أقوى الصَّوارفِ عندَهم وأشهَرَها[2]؛ فهي أعظَمُ ما يشتَغِلُ به الإنسانُ عنِ الصَّلاةِ[3]، وأيضًا لأنّ التّجارةَ الغالبُ عليها المعاملةُ الرّابحة؛ لأنّ الغرضَ منها عمومًا طلبُ الرّبح، وكلّ ذلك ممّا يشغَل الإنسانَ عنِ الذِّكر، وهذا مدخلُ الشّيطانِ للإنسان، فيوَسْوِس له بأنّك إذا انصرفتَ عن تتميم هذه الصَّفقةِ إلى الصّلاة في المسجد ضاعت فرصتُكَ هذه، ولأنّ التّجارة تأتي بمعنى الجَلَب، يُقال: تَجَر في كذا، إذا جَلَبَه، ومثلُ هذه الحالةِ تشغَل عن ذِكْرِ اللهِ؛ لتَعلُّقها بالسَّفَر.

التِّجارةُ من أقوى الصَّوارف عن ذِكْرِ اللهِ

نُكْتَةُ تنكير ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ و﴿بَيْعٌ﴾:

دلَّ التّنكيرُ لِلَفظي ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ و﴿بَيْعٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ على العموم؛ أيْ: لا يشغلهم أيُّ نوعٍ مِن أنواع التِّجارة، ولا أيُّ فردٍ من أفراد البيوع، وإن كان في غاية الرِّبح[4].

تعميمُ أنواعِ ومقاديرِ التِّجارةِ والبيعِ

نُكْتَةُ عطفِ البيع على التِّجارة:

عُطِفَ البَيعُ على التِّجارةِ في قولِه تعالى: ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لمُغايَرةِ التِّجارةِ والبَيعِ؛ فاحتمَلَ أنْ تكونَ ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ مِن

(1) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 267.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 279.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80.

إطلاقِ العامِّ، ويُرادُ به الخاصُّ، فأرادَ بالتِّجارةِ الشِّراءَ، ولذلك قابلَه بالبيعِ، أو يُرادُ تِجارةُ الجَلَبِ، ويُقال: تَجَرَ فُلانٌ في كذا، إذا جلَبَهُ، وبالبيعِ: البيعُ بالأسواقِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ مِنَ الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ لأنَّ التِّجارةَ هي البيعُ والشِّراءُ طلبًا للرِّبْحِ[1]، ويَحتمِلُ أنَّه عطَفَه عليها؛ لئلّا يُتوهَّمَ القصورُ على بيعِ التِّجارةِ[2]؛ فالإنسانُ قد يُضْطَرُّ إلى الخروجِ بالبَيعِ عن بَعضِ ما يَملِكُ؛ للاقتياتِ بثَمَنِه، أو التّبلُّغِ به إلى بَعضِ المُهمّاتِ التي لا وصولَ له إليها إلّا به، أو بتحصيلِ ما لا يملِكُ كذلك؛ لذا قال: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾؛ أيْ: وإن لم يكُنْ على وجهِ التِّجارةِ[3]، فالتّاجِرُ مَن يَجعلُ البيعَ والشِّراءَ حِرفةً له يستفيدُ منهما، والبائِعُ قد يَبيعُ السِّلعةَ مرَّةً واحدةً لحاجةٍ، ولا يُريدُ مِنَ البَيعِ التِّجارةَ، فالتِّجارةُ أعَمُّ مِنَ البَيعِ[4]، وهي جَلْبُ السِّلعِ للرّبحِ في بيعِها، والبيعُ أعمُّ، وهو أن يبيعَ أحدٌ ما يحتاج إلى ثمنه، فعطفُه في الآية مُبالغةٌ بالتَّعميمِ بعدَ التَّخصيص[5].

المبالغةُ في التَّعميمِ بعطفِ ذِكْرِ ما يُحتاج إلى ثمنه بعد ذِكْرِ ما يُقصد لطلبِ الرِّبحِ

دلالةُ الجَمعِ بينَ التِّجارةِ والبيعِ:

جمعتِ الآيةُ القرآنيّة في وصفِ عُمّارِ المساجدِ بينَ التِّجارةِ والبيعِ، في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾؛ للمبالغةِ في انشغالهم بذِكْرِ اللهِ ﷻ عنِ العوارضِ من تجارةٍ وبيعٍ، فكلُّ واحدٍ منهما كافٍ في الإشغالِ عن اللهِ تعالى، ولمّا كان المقامُ مقامَ مدحٍ وثناءٍ لهذه الرّجولة الإيمانيّة؛ أكّد ذلك بالجمعِ في عدمِ انشغالهم بالتّجارةِ والبيعِ في الحَضَرِ والسَّفَرِ؛ لأنّ التّجارةَ أغلبُ أمرِها يكونُ مع السّفرِ، والبيعُ أغلبُ أمرِه يكونُ في الحَضَرِ، وممّا يُذْكَرُ في سِرّ

للمبالغةِ في أنّهم لا يشغلهم أيُّ شيءٍ عن ذِكْرِ اللهِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 243، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 49.

(2) الأنصاريّ، فتح الرَّحمن، ص: 398، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 278.

(4) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 267.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 249.

الجمع بينهما أنَّ اسم التّجارةِ يجمع كلّ أنواع التّقلّب، واسم البيعِ يقع على الخاصّ، وكذلك يُقال للذي يجمع أنواعَ التّقلّب: تاجر، والذي يبيع شيئًا خاصًّا: بائع، ولمّا كان الأمرُ كذلك - أخبر بدفع التّوهُّم في أنّهم قد يشتغلون بالتّجارة دونَ البيع، أو بالبيع دون التّجارة؛ فجمع بينهما للمبالغة في أنّهم لا يشغلهم أيُّ شيءٍ عن ذِكْر الله مُطلقًا[1].

سِرُّ إفرادِ البيعِ بالذِّكْرِ دونَ الشِّراءِ:

البيعُ ألهى منَ الاشتراء، وقسيمُ التّجارة

أُفْرِدَ البيعُ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ مع شمول لفظ التِّجارة إيّاه؛ لأنَّه أهمُّ قِسْمي التِّجارة، فإنَّ الرِّبح يُتَوَقَّع بالاشتراء ويَتحقَّق بالبيع[2]، والشِّراءُ مَفهومٌ مِنَ البيعِ؛ لأنَّهم إذا اشتَرَوا فقد باع عليهم غيرُهم، وإذا باعوا فقد اشتَرى منهم غيرُهم[3]، وإفرادُ البيع بالذِّكْر مع اندراجه تحتَ التِّجارة؛ لأنَّه ألهى؛ ولأنَّ ربحَه مُتيقَّنٌ ناجزٌ في الغالب، وأمّا الشّراء فربْحُه مظنونٌ، واليقين الدّنيويّ أكثرُ إلهاءً منَ المظنون، وما عداه مُتوقَّع في ثاني الحال[4].

فائدةُ إضافةِ الذِّكر إلى لفظ الجلالة:

فضيلة الذِّكر وعظمتُه لجلال الله ﷻ

أُضيف الذِّكْرُ إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على عَظَمة هذا الذِّكْر في تمجيد وتعظيم الذي له الجلالُ والإكرام مُطلقًا، بصلاةٍ وغيرها، فهم كُلَّ وقتٍ في شهودٍ ومُراقبةٍ لمَن تعرَّف إليهم بِصفات الكمال[5].

دلالةُ تكرارِ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ في الجُملةِ الكريمةِ:

المُبالغةُ في تأكيدِ النَّفي

جاء التّعبير القرآنيُّ بتكرار ﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 574.
(2) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 6/ 540.
(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 267.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80، والمنصوريّ، المُقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 520.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 278.

﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ﴾؛ لإفراد البيع بالذِّكرِ مع اندراجِه تحتَ التِّجارةِ؛ وللدّلالة على شِدَّة أثرِه في الإلهاء؛ ولكون ربْحِه مُتيقَّنًا ناجزًا؛ ولتَذكيرِ النَّفيِ وتأكيدِه مُبالغةً في الثَّناء[1].

سِرّ ذِكْر الصّلاة تصريحًا بعدَ ذِكْرِها في التّسبيح:

للتّأكيد عليها والحثِّ على حفظ جميع مقوّماتها

أعاد القرآنُ الكريم ذِكْر الصّلاة تصريحًا في قوله: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، بعد ذِكْرها مُضمَّنةً في التّسبيح في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ [النور: 36]؛ تأكيدًا عليها، وحثًّا على حفظ وقتها؛ لأنّ ذلك من جملة مُقوّماتها، وكذا جميع حدودها، ولو بأوجز ما يكون للبلوغ إلى الكمال[2]، وهذا على القول بأنَّ التسبيح أُريد به الصلاة كما تقدَّم.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وحذفِ التّاء من ﴿وَإِقَامِ﴾:

الإشارةُ إلى إقامةِ الصَّلاةِ في مواقيتِها من غيرِ تأخيرٍ

جاء التّعبير القرآنيُّ بالثّناء على الرّجال بإقامة الصّلاة في قوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ دون (والصلاة)؛ للدّلالة على أنّهم يُقيمونها لمواقيتها من غير تأخير، وأصله: (وإقامة)، فأُسقِطَت التّاءُ المُعوّضة عنِ العين السّاقطة بالإعلال، وعوِّضَ عنها بالإضافة، فأُقيمت الإضافةُ مقامَ التّاء[3]، وفي حذف التّاءِ في ﴿وَإِقَامِ﴾ إشارةٌ إلى إقامة الصَّلاة ولو بأوجَزِ ما يكونُ مِن أدنى الكَمالِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ هذا المَدحَ لا يتوقَّفُ على أنهى الكَمالِ[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالإقامةِ للصّلاةِ دونَ الأداءِ:

الإقامةُ للصّلاةِ إتيانٌ بها على وجهِها الأكملِ مع مراعاةِ شروطِها وأركانِها وآدابِها

النّاظرُ في آيات القرآن الكريم التي تحدَّثت عن إقامة الصّلاة، يجد ملازمةَ مادّةِ الإقامةِ مع اختلاف صيغ التّعبير بها، فمن التّعبير

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 243، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 397، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 108.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 279.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 80.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 323، والرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 5/ 261، وقيل: حَذْفُ هاءِ (إقامة) تخفيفٌ، يُنظر: تفسير الجلالَيْن، ص: 464.

بالماضي ﴿أَقَامُواْ﴾ [الحج: 41]، ومنَ التّعبير بالمضارع ﴿يُقِيمُونَ﴾ [المائدة: 55]، والأمر ﴿أَقِمِ﴾ [الإسراء: 78]، والمصدر ﴿وَإِقَامِ﴾، واسم الفاعل ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ [النساء: 162]؛ وذلك للدّلالة على معنًى روحيٍّ يقصدُه القرآنُ الكريم في إقامة الصّلاة، وهو التّبتّل والخشوع؛ لذلك كان التّعبير بالإقامة يؤدّي معنًى لا يوجد في مادّة (الأداء)؛ لأنّه يتضمّن الإتيانَ بالصّلاة على وجهها الأكمل؛ شروطًا وأركانًا، مع التزام الخشوع والخضوع، وهذه المعاني مفقودة لو جاء التّعبير (يُؤدّون الصّلاة)؛ لأنّه يُطلَق على أداء مظاهرِ الصّلاة من حركاتٍ وأقوالٍ وأفعالٍ، ولو من غير خشوعٍ، وهذا هو الفرق بينَ الإقامة والأداء، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ المَدح جاء مع مادّة الإقامةِ، ورتّب الجزاءَ عليها، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النّساء: 162]، فجمع لهم بينَ المَدح والأجر العظيم.

سِرُّ التّعبير بالمصدريّة دونَ الفعليّة:

تـأكـيـدُ تعـلُّـق قـلـوبِ هـؤلاءِ الـرّجـالِ بإقامةِ الصّلاةِ وتمكُّنها من أرواحهم في كلِّ وقتٍ

أثنى اللّهُ تعالى على المسبِّحين بإقامة الصّلاة بصفة المصدريّة فقال: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ دون الفعليَّة (يقيمون) مع أنّ تركيب الآية السّابقة واللّاحقة يغلب عليه صفةُ الفعليَّة، ومع ذلك جاء التّعبير بالمصدريّة التي تدلُّ على تأكيد الحَدث ولزومِه؛ فهؤلاء الرّجال تعلّقت قلوبُهم بإقامة الصّلاة، وتمكّنت من أرواحهم حتّى في غير أوقات الصّلاة المعروفة، فلم تنشغل قلوبُهم عنِ التّعلّق بإقامة الصّلاة والإعداد لها، وهذا المعنى يشرحُه قولُ رسول اللّه ﷺ: «ورجلٌ قلبُه معلّقٌ بالمساجد»[1]؛ حيث جاء التّعبير بالاسميّة (معلّقٌ)، أمّا التّعبير بالفعليّة فهو يدلُّ على تَجدُّد الحدث، وهو إقامة الصّلاة في مواقيتها؛ فكلّما جاء وقتٌ من مواقيت الصّلاة أقاموها، والأكمل منه التّعلّق بالصّلاة، سواءٌ كان في وقتها أو في غير وقتها.

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (629)، ومسلمٌ في صحيحه، برقم: (1031).

عِلَّةُ إيرادِ إيتاءِ الزَّكاةِ مع ما يُفعل في المساجدِ منَ الأعمالِ غالبًا:

مَحاسِنُ الرّجولةِ الإيمانيّةِ غيرُ مُنْحصرةٍ فيما يقَعُ في المساجدِ

أورد القرآنُ الكريم قولَه: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ في هذه الآية وإنْ لم يكُنْ ممّا يُفعَلُ في المساجد؛ لكونِه قَرينةً لا تُفارِقُ إقامةَ الصَّلاةِ في عامَّةِ المواضعِ مع ما فيه مِنَ التَّنبيهِ على أنَّ مَحاسنَ أعمالِهم غيرُ مُنْحصرةٍ فيما يقَعُ في المساجدِ[1]؛ وللدّلالة على أنّ إيتاءَ الزّكاة أعظمُ العباداتِ الماليّة، كما أنّ الصّلاة أعظمُ العباداتِ البدنيّة؛ ولأنّ المقامَ مقامُ مدحٍ، فأثبت لهم أداءَ حَقّ اللّه في إقامة الصّلاة وأداء حَقّ العِباد في إيتاء الزكاة، وهذا يؤكّد عدمَ انشغالهم بالتّجارة والبيع عن أداء الحقوق.

سِرُّ التّعبير بالإيتاء مع الزّكاة:

المُزكّي يدفع زكاته عن طيب نفسٍ وسلامة صدرٍ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإيتاء معَ الزّكاة دونَ غيره؛ لما يحملُه هذا اللّفظ من معانٍ تتناسب مع فرْضيّة الزّكاة، ذلك أنّه يدلُّ على طيب النّفسِ وسلامة الصّدرِ في إيتاء الزّكاة دونَ بُغضٍ أو كراهيَة لإخراج هذا الحَقّ المعلوم للسّائلِ والمَحروم.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾:

ذِكْرُ عِلّةِ أفعالِهم الكريمةِ زيادةٌ في مدحهم

فُصل قولِه تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾؛ لأنّها جملةٌ استئنافيّة مسوقة للتّعليل؛ لأنّ النَّظم الكريم لمّا وصف الرِّجالَ المذكورين بما وصفهم به، ذَكَرَ عِلَّةَ فعلِهم لذلك زيادةً في مدحهم فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة[2]، وأيضًا: لأنّ هذه الجملة جاءت لبيان صفات قلوبِهم وخواطرِ نفوسِهم بعدَ بيانِ أعمالِهم وحركاتِ جوارحِهم، وكأنّها جوابٌ لسؤالٍ يَرِد في الخاطر؛ ماذا عن صفات قلوبهم بعد أعمالهم وحركات جوارحهم؟ فجاء الجوابُ: إنّهم يفعلون هذه الأعمالَ اتّقاءً ليومٍ تتردَّد فيه النّفوسُ بينَ الخوفِ والرّجاء، ذلك

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 179.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 280.

اليوم الذي تذهَل فيه كلُّ مُرضِعَة عمّا أرضعت، ويكون الولدانُ فيه شيبًا.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾:

خوف الله تعالى عبادة وقربة

يُخبِر اللّهُ تعالى عن هؤلاء الرِّجال - وإن بالغوا في ذِكْر الله وطاعته - بأنَّهم خائفون من لقاء الله تعالى، في قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾، للإشارة بأنَّ مَن تَعَبَّدَ للهِ خَوفًا فهو محمودٌ؛ وقد أثنى اللّهُ تعالى على مَن تَعبَّدَ خوفًا مِن عذابه فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: 7]، وهُنا قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وأثنى اللّهُ تعالى على مَن تَعَبَّدَ طلبًا لفضله ورضوانه، قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: 29]، وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ إلى أنَّ الأفضلَ في التَّعبُّدِ ألّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه؛ وإنّما يَعْبُدُ اللّهَ لذاته فقط، لا قصدًا لفضله، ولا حَذَرًا مِن عقابه! وهذا نبيُّ اللّهِ ﷺ، وهؤلاء أصحابُه - وهم أكملُ حالًا - قد ذَكَر اللّهُ عنهم أنَّهم كانوا يَبْتَغونَ فضْلًا مِنَ الله ورِضْوانًا، وكذلك فإنَّ مَن يَعْبُدُ اللّهَ سبحانَه لينالَ فضْلَه وينجوَ مِن عقابه هو يريدُ الوصولَ إلى رِضوانِ اللّهِ، وإلى رؤيةِ اللّهِ ﷻ التي هي مِن جملةِ النَّعيمِ في الجنَّةِ[1]، وفي ذِكْر الخوفِ في هذه الآية تَعريضٌ بالمُنافقين[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالخوفِ دونَ الخشيةِ:

الخوفُ من مَخوفٍ مُستقبليٍّ، ويدلّ على ضعفِ الخائف

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بالخوف دونَ الخشية في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع اشتراكهما في الدّلالة على الخوف؛ إلّا أنّ الخشية تزيد على الخوف، ولذلك تُسنَد الخشيةُ دومًا إلى اللّه تعالى، نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ

(1) ابن عُثيْمين، تفسير سورة النّور، ص: 268.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249.

أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37]؛ بخلاف الخوف فإنّه يدلّ على ضعف الخائف ولو كان المَخوف أمرًا يسيرًا، وآياتُ القرآن توضِّح سِرَّ الاختلاف في التّعبير بهما، وهذا ظاهرٌ من خلال السّياق القرآنيّ، قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: 21]؛ حيثُ جاءت الخشيةُ مع ربّ العالَمين، والخوفُ من سوء العذاب، وممّا يُذكَر في سِرّ التّعبير بالخوف في هذه الآية أنّه يتعلّق بالمستقبل، وهذا هو المناسبُ لسياق الآية؛ حيثُ إنّها تتحدّث عن اليوم الآخر الذي لا يعلم كُنهَهُ على الحقيقة إلّا الله، فلا يعلم الإنسانُ إلى أيّ مصيرٍ يكون.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿يَوْمًا﴾:

تهويلُ أمرِ ذلك اليومِ وتعظيمُ شأنِه

دلَّ التّنكير في لفظ ﴿يَوْمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ على هول ذلك اليوم؛ لتذهبَ النّفس في تصويره كلَّ مذهب؛ والمعنى: يخافون أهوالَ ذلك اليوم[1]، وهو يوم القيامة؛ لذا كان تنكير لفظ ﴿يَوْمًا﴾ لبيان شِدَّة أهواله، وما دلَّ عليه هذا التّنكير من عِظَم هولِ ذلك اليوم وتأثيره في القلوب والأبصار، وقد جاء وصفُ ذلك اليوم في آيات كثيرة من كتاب الله العظيم؛ كقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النّازعات: 8 - 9]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: 42]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: 18][2].

سِرّ التّعبير بالتّقلّب دونَ التّغيّر:

التّقلّب أخصّ منَ التّغير، وهو المناسب للسّياق

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالتّقلُّب مع القلوب دون التّغير في قوله تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ لأنّ التّقلّب هو المناسب لهذا السّياق، حيثُ يُطلَق على صرف الشّيء عن وجهه إلى وجهٍ آخر؛ فالقلوبُ تتقلّب في ذلك اليوم بينَ الخوف والرّجاء، والسّرور

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 249.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 548.

والغَمّ، وبين توقّع النّجاة وخوفِ الهلاك، إشفاقًا منَ العقاب ورجاءً للثّواب، والأولى صفةُ أعداء الله، والأُخرى صفةُ أولياء الله، وأمّا تقلّب الأبصار: فالمُراد به تكريرُ لَحْظِ المؤمنين إلى مطالع الثّواب، وتكريرُ لَحْظ الكافرين إلى مطالع العقاب[1] بخلاف التّغيير؛ لأنّه يُقال لوجهيْن؛ **أحدهما**: لتغيير صورة الشّيء دونَ ذاته، يُقال: غيّرتُ داري، إذا بنيتَها بناءً غيرَ الذي كان، **والثّاني**: لتبديله بغيره، نحو: غيّرتُ دابّتي، ومنه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: 11]، وعلى هذا فالتّغيير أعمُّ منَ التّقليب[2].

بلاغة التّعبير بالتّقلُّب للقلوب والأبصار بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

تعدّدت الأقوالُ في المُراد بتقلُّب القلوب والأبصار في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ فمنهم مَنْ قال: إنّ القلوب تضطرب فيه هولًا وفَزَعًا، وتزيغ فيه الأبصارُ كربًا وجَزَعًا؛ فتتقلّب فيه القلوبُ والأبصارُ من حالٍ إلى حالٍ على حسب جلال الموقف ورهبته فيه، مُضطربةً قَلِقةً مُتقلبةً من طمعٍ في النَّجاة إلى طمعٍ، ومن حَذَرِ هلاكٍ إلى حَذَرٍ، ومن نَظَرٍ في هولٍ إلى النَّظر في الآخر، والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها[3]، ومنهم مَنْ قال: إنّ القلوبَ تتقلَّبُ إلى الإيمان بعد الكفر، والأبصارَ إلى العيان بعد الإنكار في الدُّنيا[4]؛ فالكلامُ على هذا المعنى مجازٌ عقليٌّ؛ حيثُ أُسنِد إلى القلوب والأبصار التَّقلُّبُ والاضطراب مِن شدَّة الهول والفَزَع[5].

المُبالغةُ في تصويرِ الكَرْبِ وشِدَّةِ الهولِ والفزعِ في ذلك اليومِ العظيم

ومنهم مَنْ قال: إنّ التّقلّب قد يكون على الحقيقة، والمُراد بتَقَلُّب

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/ 244، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 179.
(2) الرّاغب، المُفردات: (غير).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 186.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 16/ 296، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 249، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1289.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 614.

القلوب والأبصار: اضطرابُها عن مواضعها منَ الخوف والوَجَل، كما يتقلّب المَرءُ في مكانه، ففي يوم القيامة تَتَقَلَّبُ فيهِ ٱلْقُلُوبُ ببلوغها الحناجر، وَٱلْأَبْصارُ بالشُّخوص والزُّرقة[1]، وتتقلَّب الأبصارُ من أيّ ناحيةٍ يُؤمَر بهم، أَمِن ناحية اليمين أم من ناحية الشّمال؟ ومِن أيّ ناحية يُعطَون كتابَهم، أَمِن قِبَل الأيمان أم من قِبَل الشَّمائل؟[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بالتَّقلُّب دونَ القَلْبِ:

بيانُ شِدَّة ظهورِ تَقلُّبِها واضطرابِها

عبَّر النَّظمُ الكريم عنِ اضطراب القلوبِ والأبصار بالتّقلُّب دون القَلْب في قوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ لكونه تقلُّبًا ظاهرًا، فأشار إليه بإثبات التّاءيْن[3]، وهذا من باب الإظهار الذي يدلُّ على الوضوح والظُّهور لحالة التّقلُّب؛ لأنّه قد يُتوهّم عدمُ ظهورها؛ لما يعتري القلبَ والبصرَ منَ الخفاء الذي جعل بعضَ المُفسِّرين يقولون: إنَّ المُراد بتقلُّب القلوبِ والأبصار هو تقلُّب أحوالِهما من باب المَجاز المرسل مع أنّه ورد في القرآن الكريم ما يُدلّل على أنّ الأمر ظاهرٌ مع القلوب بأن تزولَ عن أماكنها فتبلغَ الحناجر، ومع الأبصار بأن تصير زُرقًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10][4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّقلُّب فِعْلًا مُضارعًا:

إفادةُ تجدُّد التَّقلُّب واستمراره منهم بتغيُّر الأحوال عليهم

جيء بفعل التّقلّب مُضارعًا لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، فتَقَلُّبُ القلوبِ والأبصار مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ منهم بتغيُّر الأحوال والأهوال عليهم في ذلك اليوم العصيب، فهي في اضطراب لا تثبت من شِدَّة الهول والفزع[5].

(1) النّيسابوريّ، باهر البرهان، ص: 1003.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 398.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 280.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 293.
(5) الطَّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 131.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ الظّرفيّةِ ﴿فِيهِ﴾ على الفاعل:

الاهتمامُ بشأن هـذا اليـوم، والتَّشويقُ لما سيحصل فيه

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ اهتمامٌ بشأن هذا اليوم العظيم، وما يقع فيه من أهوالٍ تُبرِز حالةَ الخوف فيه، وهو حالُ النّاس عند معايَنة شِدَّته وهولِه.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ المُغايرِ في قولِهِ: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾:

المُناسبةُ بين روعةِ المعنى وسِحْرِ الجَرْسِ

سُمّي القلبُ بهذا الاسم لكثرة تقلُّبه[1]، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّما سُمّي القلبُ من تقلّبه، إنَّما مثلُ القَلْب مثلُ ريشة بالفَلاة، تعلَّقت في أصل شجرةٍ يُقلِّبها الرّيح ظهرًا لبطنٍ»[2]، ومنه قول الشّاعر[3]:

قد سُمِّي القَلْبُ قَلْبًا مِنْ تَقَلُّبِه *** فاحْذَرْ على القَلْبِ مِنْ قَلبٍ وتَحْويلِ

وقد وقع بينَ الفعل ﴿تَتَقَلَّبُ﴾، والاسم ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ جناس، ونجدُ في هاتيْن اللَّفْظَتيْن - فوقَ روعة المعنى وسِحْر الجَرْس - مُناسبةً بين رُكني الجِناس رائعة، وهذه المناسبةُ لو لم يكن للجناس وظيفةٌ سواها، لكانت كفيلةً بأصالته وحُسْنه، وهكذا في كُلِّ جناس نلمس خَلابةً وسِحْرًا، وأَسْرًا للسَّمع والفكر معًا.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ و﴿وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

إفـادةُ العـهـدِ بتـقـلُّبِ قـلـوبِ المُجرمين وأبصارِ الغافلين

قولُه تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أيْ: تتقلَّب قُلوبُ الكُفّار عمّا كانت عليه في الدُّنيا منَ الكفر والشَّكِّ، وتنفتح أبصارُهم منَ الأغطية فتُبصرُ ما لم تكن تُبصر ولم تحتسب[4]، واللّام في المَوضعيْن للعهد؛ أيْ: قلوبُ المُجرمين وأبصارُ الغافلين؛ لأنَّ ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: 62][5]، ويجوز أن تكون (أل) للاستغراق والشّمول؛ فتشمل كلّ القلوبِ، ولا يستثنى منها إلّا منِ اصطفاه الله وأمَّنَه في ذلك اليوم.

---

(1) المُناويّ، فيض القدير: 3/ 2.

(2) أخرجه أحمد في المُسند، برقم: (19661)، والبيهقيّ في شُعَب الإيمان، برقم: (737).

(3) البيت من البسيط، ولم أقف على نسبته.

(4) المَظهريّ، التَّفسير المَظهريّ: 6/ 540.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 389.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ

لا يكاد أهلُ اللُّغة يفرِّقون بينَ الإيتاء والإعطاء، لكن نجد في الاستعمال القرآنيِّ بعض الفروق الدَّقيقة التي توحي ببلاغة القرآن وعَظَمتِه، وذلك من حيثُ إنَّ الإيتاء أقوى منَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له فعلٌ مطاوع، تقول: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإيتاء: آتاني فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني فأخذتُ، والفعل الذي له فعل مطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله منَ الذي لا مطاوع له[1]، فالإيتاءُ أقوى منَ الإعطاء، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلك شيءٌ عظيم لا يُعْطاه إلّا مَنْ له قوّة، وكذا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، والحكمة شيءٌ عظيمٌ أيضًا، وقال تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحِجر: 87]؛ لعِظَم القرآنِ وشأنِه[2].

في الإيتاءِ وُجوبٌ والـتِـزام، وفي الإعْطاءِ تَفَضُّلٌ وإكْرامٌ

فالإتيان فيه معنى الوجوب والالتزام، أمّا الإعطاء ففيه معنى التَّفضُّلِ والإكرام؛ فمثلًا: بعد أن أسعد اللّهُ المؤمنين بدخول الجنَّة قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النّبأ: 36]، والعطاء يكون في الأشياء الماديَّة ويُفيد التَّكرار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]؛ أيْ: سيتكرر شُرْبُكَ يا محمَّد كثيرًا من نهر الكوثر، وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضُّحى: 5]؛ أيْ: سيكون عطاءُ اللّه لكَ مُكرَّرًا حتَّى تبلغَ درجة الرِّضا[3]، أمّا الإتيان ففي الأشياء الماديَّة والمعنويَّة، قال سُبحانه: ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: 20][4].

(1) السُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367 - 368، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) السُّيوطيُّ، الإتْقان: 2/ 367، والكَفَويُّ، الكُلّياتُ، ص: 212.
(3) الكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 212، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367.
(4) صلاح لاشين، من أسرار التَّعبير في القرآن الكريم، ص: 71 - 77.

ومنَ الفروق أيضًا: أنّ الإعطاء دليلُ التّملُّك دونَ الإيتاء[1]؛ لأنّ الإعطاء إيصالُ الشَّيء إلى الآخذ له، وقد كَثُرَ استعمالُه حتَّى صار لا يُطلَق إلّا على التَّمليك؛ فيُقال: أعطاه مالًا، إذا ملَّكَهُ إيّاه، وأمّا الإيتاء فيشملُه النَّزع؛ بمعنى: أنَّه ليس بالضَّرورة تمليكًا، كما أنّ الإيتاء يكون عن طيب خاطرٍ ورضا نفسٍ، بخلاف العطاء؛ فقد يكون على غير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29].

الإعْـطـاءُ دَليـلُ التَّمَلُّكِ، وليس كـذلـك الإيـتـاء مُطلقًا

الخوف والخشية:

الخوفُ: توقُّع حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوب[2]، والخشيَةُ: تألُّم القلبِ لتَوقُّع المكروه مُستقبلًا[3]، وهما متقاربان في اللُّغة؛ أمّا ما كان منهما من العبد في حقِّ ربِّه؛ فإنَّ الخوف تألُّم النَّفسِ منَ العقاب المُتوقَّع بسبب ارتكاب المنهيّات، والتَّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخَلْق، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جِدًّا، والمرتبةُ العُليا منه لا تحصل إلّا للقليل[4].

الخشيةُ خوفٌ خـاصٌّ يَـشوبُه تعـظيـمٌ، وهي أثـــرٌ مِـــن آثـــارِ الخوفِ

والخشية: حالة تحصل عند الشُّعور بمعرفة جلال الله وهيبته[5]، وخوفِ الحَجبِ عنه، وهذه حالة لا تحصل إلّا لمَن عَلِمَ وذاق لذَّةَ القُرب، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]؛ فالخوفُ من شرط الإيمان، والخشية من شرط العِلْم[6]، فالخشيةُ: خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ[7]، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرَّعد: 21]، حيثُ ذَكَر الخشية في جانبه سبحانه، والخوفَ في جانب الحساب.

---

(1) الكَفَويّ، الكلّيّات: 1/ 360، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 86.
(2) الجُرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 101.
(3) المُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 218.
(5) الجُرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 98، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.
(6) البعليّ، المُطْلِعُ على ألفاظ المُقنع، ص: 239.
(7) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»